تاجر الصحراء

بيتر ماهر توفيليس

وقف تاجر الصحراء بجواره الجمل يجترّ وقد أنهكه طول الرحلة.. كم كانت في تلك المرة صعبة وشاقة، لكنه اعتاد على ذلك.. نظر التاجر على امتداد بصره إلى أرض اليوم، وفي كل مرة يبتعد ويبتعد ولا يعرف إلى أين سوف تأخذه التجارة..

جاء المستأجرون، كل مستأجر حسب طلبه؛ فهناك المستأجرون الصباحيون، وهناك المستأجرون المسائيون الذين لا يجمع بينهم شيء سوى الأرض نفسها..

جاء المسائيون وقد وجدوا ضالتهم المنشودة في تلك الأرض التي تخدم أغراضهم وكان لمعان النجوم ومجموعاتها وتشكيلاتها لها اهتمام خاص لديهم، بل إنهم ينظمون الشهر على الأساس القمري وأهم أيام الشهر بالطبع حينما يكون القمر بدرا وأقل الأيام إفادة حينما يكون محاقا.

المسائيون أعدوا كل شيء واتفقوا على كل شيء مع التاجر، وتم تحديد ساعات العمل إحدى عشرة ساعة، من الساعة السادسة مساء وحتى الساعة الخامسة صباحا.

جاءت بنود العقد من حيث الإيجار ومدة التعاقد وماذا بعد انتهاء المدة المحددة في العقد، هل يكون هناك تجديد وزيادة في الإيجار.. تركوا كل هذه الأمور إلى حين..

فكر التاجر بأنه قد تختلف الأمور وربما تكون هناك زيادة، وربما وعلى أسوأ الظروف نقص.

انصرف المسائيون بعد الاتفاق على كل شيء، اتخذوا من النجوم المرشد الأساسي لهم، انصرفوا قبل طلوع الفجر.

الصباحيون، الشمس لديهم المحور الأساسي، وساعات الظل هي ساعات الراحة، وهناك عامل آخر لا يقل أهمية عن الشمس، هو النخل، وإن كان ضوء الشمس يكره الحجب، لكن النخل هو الشيء الوحيد الذي يُستظل به في الصحراء، عدو الشمس الوحيد هناك، ترفض كل الرفض إيقاف شعاعها وترفض أي عائق، هدفها أن يلمس الشعاع الأرض.

الشمس تجد نفسها في الصحراء، حيث لا يوجد ما يعوق شعاعها إلا النخل، يكسر هذا الغرور، ولذلك يزداد سعر الأرض كلما زاد النخل فيها..

يكفي الصيف الشديد الذي لا يرحم في الصحراء لمعرفة قيمة كل نخلة بغض النظر عن التمر الموجود فيها.

فمنذ الشروق وحتى ينتصف النهار يكون هناك نشاط وجهد متواصل، وقبل غروب الشمس يعيدون كل شيء نُصب في الأرض ويتم إخلاء المكان للمسائيين.

اتفقوا أيضا على كل شيء مع التاجر وتم تحديد عدد ساعات العمل إحدى عشرة ساعة من الساعة السادسة صباحا وحتى الساعة الخامسة مساء.

لم يرحلوا مثل المسائيين، بل انتظروا شروق الشمس، اتخذوا اتجاه الشمال مرشدا لهم في الطريق وساروا عليه، كل شيء على أن يبدأ النشاط من الغد..

وبعدما أنهى التاجر كل شيء استعد لسفر إلى أرض جديدة يسافر في الليل والنهار وفي جميع الأوقات وفي العواصف الرملية وفي الأمطار وإن كانت نادرة جدًّا، هنا يعرف كل شيء عن الجبال والأودية والصخور والتلال حتى الحيوانات والزواحف وكأن كل شيء ملكه.

تحرك مع الجمل واختار في تلك المرة جهة الجنوب لعلها تكون أكثر ربحا مما سبقها من جهات!